محمد اركون والعلمنة المنفتحة

مهدي النجار

بعكس أولئك الذين انخرطوا كليا في مسار الثقافة التقليدية العربية الإسلامية فشكلوا عقبة كأداء في طريق أي توجه نحو الحداثة أو الاندراج في ثقافة الألفية الثالثة من عصرنا ،الذين يرفضون بشكل متشدد تصحيح مسارهم أو العودة النقدية على ذاتهم ،وكذلك عكس أولئك الذين أداروا ظهورهم للثقافة العربية الإسلامية وتعاملوا معها بتعال وعنجهية بحجة انشغالاتهم الثقافية بمواضيع المعاصرة ،عكس أولئك جميعاً،نجد محمد اركون يسعى مناضلاً ليحقق موقعه المتمايز في ساحة المعرفة ،فلا هو في الجهة الإسلامية التقليدية،ولا هو في الجهة الحداثوية،انه يحاول أن يحفر له موقعاً خاصاً مستقلاً يحترم قواعد البحث العلمي ويحمل هم المجتمعات الإسلامية في آن معاً، وهو موقع صعب لانه يتعرض للهجوم من كلتا الجهتين.

إن انشغالات اركون في كل ما ينظر له (انظر مثلاً كتبه:الفكر الإسلامي نقد واجتهاد/أين هو الفكر الإسلامي/نزعة الإنسية ،الصادرة عن دار الساقي . لندن،وكذلك:نقد العقل الديني،دار الطليعة . بيروت)هو مساعدة الثقافة الإسلامية على الاندراج داخل الحداثة،وهذا ما حاول أن يفعله في العصور الوسطى مفكرو الإسلام من أمثال ابن رشد وابن خلدون ومسكويه، ولكن عملهم توقف للأسف ولم يبق في الساحة إلا المتشددون "اليابسو الرؤوس" من الكتاب والمنظرين.

لا يمكن أن نفهم اركون وفكره إلا إذا عرفنا الموقع الذي يحتله أو ينطلق منه، فهو (كما يقدمه لنا مترجمه المبدع ،المفكر هاشم صالح) يحتل موقعاً داخل الساحة الفرنسية كأستاذ في السوربون وكمدافع عن حقوق الجاليات الإسلامية المغتربة في فرنسا وشتى أنحاء أوربا وكممثل للتراث الإسلامي في أعلى مستوياته، يجعله هذا الموقع في حالة مواجهة مع الفكر الأوربي والمفكرين الأوربيين،وهؤلاء . أو معظمهم . ما إن تلفظ كلمة إسلام أو عرب أمامهم حتى يتخيلوا شبح التعصب واللاتسامح واحتقار المرأة وعدم الاعتراف بقيم العالم الحديث وبخاصة حقوق الإنسان ...الخ.بالطبع فان اركون لا يُنكر وجود أزمة بين التراث الإسلامي وبين العصر ،ولكنه ينظر إليها ضمن منظور تاريخي،فمن الواضح أن المجتمعات العربية الإسلامية تعاني من تأخر اقتصادي وعلمي وتقني لا يتيح لها أن تحترم حقوق الإنسان كما كانت قد أعلنت من قبل الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ أو من قبل الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ .ولكن ذلك ليس عائدا إلى تعصب أزلي أو ابدي لاصق بالإسلام أو بالعرب كإسلام وكعرب !! وانما هو عائد بكل بساطة إلى التفاوت التاريخي بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الأوربية

إن تَقبل موضوع العلمنة (وكذلك سائر موضوعات الحداثة) أو رفضه،ليس صفة أزلية معلقة في الفراغ،وانما هو خاصية مرتبطة باكراهات المجتمع ودرجة تطوره المادي ومدى بحبوحته الاقتصادية أو عدم بحبوحته،ومدى مراجعته لتراثه بشكل نقدي وتنويري جذري أو عدم مراجعته ...الخ،فمفهوم العلمنة الذي فرضته الجمهورية الفرنسية الثالثة كان صارماً جداً وخاضعاً كلياً للدين الوضعي: أي عبادة العلم بدلاً من عبادة الدين التي كانت سائدة في أثناء سيطرة المسيحية،ويقصد اركون بذلك إن الحل الذي قدمته فرنسا لمشكلة العلمنة/والدين اصبح الآن قديماً،وهي تبحث عن صيغة جديدة للعلمنة،أي علمنة منفتحة على كل أبعاد الإنسان بما فيها البعد الديني والروحي، وهذا لا يعني بالطبع التراجع عن المكتسبات السابقة للعلمنة، بمعنى إن الحل لن يكون في العودة التقليدية إلى الدين، فهذا شيء غير ممكن وغير معقول،وانما الحل (كما يراه اركون)هو في البحث عن صيغة جديدة للعلمنة الروحية أو للإنسية الروحية من خلال الدراسة المقارنة لكل التجارب الروحية في كل المجتمعات البشرية،فقد أدت العلمنة الفرنسية ليس فقط إلى حذف تعليم الدين كعقائد دوغماتية ولاهوتية قروسطية (الشيء الذي يوافق عليه اركون تماماً)،وانما أدت أيضا إلى حذف تعليمه كنظام ثقافي وتاريخي سيطر على عقول البشر طيلة قرون وقرون.

إن الأمور الآن تغيرت بعد مرور اكثر من قرن على ترسيخ العلمنة واصبح تعديل مفهومها ممكناً دون أن تخشى فرنسا على نفسها. أصبحت العلمنة واثقة من نفسها وراسخة الجذور لان الثقافة التي تحتضنها قوية جداً،وبالتالي فبإمكانها فتح هذه الإضبارة من جديد واعادة النظر في حلول كانت قد اعتقدت إنها نهائية وكونية ،هذا في حين إنها كانت مرتبطة بظروف معينة لم تعد موجودة ،ظروف المجتمع الفرنسي في القرن التاسع عشر والصراع ضد الاكليروس ومعاداته الحداثة وحقوق الإنسان والديمقراطية (هكذا نجد إن محمد اركون يتحدث من موقع متقدم حتى على المجتمع الفرنسي، فما بالك بالمجتمعات العربية الإسلامية التي لم يتح لها إلى الآن أن تشهد حتى المرحلة الأولى من العلمنة) .

يُفرق اركون في جميع كتاباته بهذا الصدد،بين العلمانية المنفتحة على كل أبعاد الإنسان وبين العلمانية الوضعية (السائدة في فرنسا منذ القرن التاسع عشر) والتي اعتقدت أن المرحلة الدينية من تاريخ البشرية قد انتهت بمجيء عهد العلم،وبالتالي لا داعي للاهتمام بالدين أو دراسته منذ الآن فصاعداً. في رأي اركون أن الدين يشكل أبعاد الإنسان ولا ينبغي أن يستبعد من مجال الدراسة.بالطبع فهو يتفق مع المنظور العلماني في إبعاد الطريقة التقليدية أو التبشيرية عن المدارس والجامعات لأنها تشحن النفوس وتلهب الحساسيات الطائفية بين التلاميذ (يهودي.مسيحي.إسلامي) اوحتى بين الدين الواحد(بين الكاثوليك والبروتستانت،بين السنة والشيعة (...ولكن لا يرى أي مانع في دراسة الأنظمة الدينية واللاهوتية ضمن منظور تاريخي وعلمي مسؤول كما هو يفعل في جامعة السوربون،أو كما يفعل كبار الباحثين في مجال تاريخ الأديان في الجامعات الألمانية خصوصاً.

إن المفهوم المنفتح الذي يقدمه اركون عن العلمنة يضع الروح في أعلى مكان،ويقدس العاطفة الدينية المنزهة عن كل الأغراض. كل ما في الأمر هو فك الارتباط بين مؤسسة الدولةوبين المذاهب وطبقة رجال الدين، لان الدولة لجميع المواطنين وليست لابناء هذه الطائفة أو تلك،لهذا المذهب أو ذاك، أنها لجميع أبناء المجتمع المدني دون تمييز.لقد أتاحت العلمنة لرجال الدين أن يستقلوا بأنفسهم فيما يخص الشؤون العقائدية والروحية ، وان يتفرغوا للبحث الحر في هذه الشؤون وتعميقها دون أن يخشوا تدخل السلطة في شؤونهم،والواقع انه لا يمكن تشكيل مجتمع مدني متماسك ومتراص إلا بهذه الطريقة.من هنا سبب فشل معظم المجتمعات العربية الإسلامية الحالية في تشكيل المجتمع المدني الحديث وفي تفككها إلى فئات وطوائف واعراق اثنية ملتفة على ذاتها ومغلقة على الآخرين.

موسم الكتاب السوري قاحل بولادات جديدة..!

ابراهيم حاج عبدي
دمشق

إذا اعتبرنا الكتاب مؤشرا على ازدهار الثقافة، فيمكن القول بان المشهد الثقافي السوري، في هذه السنة، لم يقدم جديدا لافتا، إذ لم يصدر كتاب يثير ضجة ويحرك بحيرة الثقافة الراكدة، وما قدمته المطابع من ثمار الرواية والشعر والقصة، لا يعدو كونه شيئا عاديا وعابرا. لا سجال ولا جدال. كل كتاب يمر بسلام دون أن يتمكن من إثارة عاصفة ثقافية. مقالات صحفية هنا وهناك أثارت زوابع على الصعيد السياسي فيما بقي الإبداع الأدبي مطمئنا إلى هدوئه في ظل واقع قاحل بالولادات الجديدة، والمواهب البارزة.

المؤسسة الرسمية التي ترعى الثقافة والمتمثلة في اتحاد الكتاب العرب حيث نزل علي عقلة عرسان عن عرشه الذي احتفظ به ٢٨ عاما، ليحل محله اسم لم نسمع به من قبل هو حسن جمعة، هذه المؤسسة تنشر كتبا للأصدقاء والمقربين، ولا تملك القدرة، بأسلوبها وآلية عملها، على تفعيل حركة الثقافة والنشر وإثراء اللوحة الناقصة بروافد مختلفة ومغايرة. هي مسيسة وموجهة على نحو مفرغ من أي هم ثقافي حقيقي، ولم يسبق لها ان اصدرت كتابا جيدا من ناحيتي المضمون والإخراج، ويقال بان كتبها مكدسة في المستودعات، ناهيك عن ان رموز الثقافة السورية قد هجرتها غير نادمة، أما وزارة الثقافة، الجهة الرسمية الأخرى، فتصدر كتبا متباينة بعضها رديء، وبعضها الآخر جدير بالقراءة، وخصوصا حين يكون الكتاب مترجما.

إن أي محاولة لتقييم المشهد الثقافي السوري من خلال إبداعات السوريين، ورصد تحولاته وآفاقه، لا تقود إلى إعطاء صورة واضحة لهذا المشهد، ذلك أن الكتاب السوريين منقسمون في الأفكار والأهواء، والميول، وموزعون كذلك على الصعيد الجغرافي، ومصنفون ضمن ما يسمى بالأجيال الأدبية، وثمة من لا يقبل الثقافة السورية هوية له، فهوية إبداعه أكثر رحابة من هذه الهوية الضيقة كما يعتقد كثيرون. وإذا ما برز نجاح هنا وهناك فيكون، في أغلبه، اجتهادات شخصية لا ترقى إلى مستوى التكريس لظاهرة ثقافية تبشر بالأمل، والتجديد. هل يمكن مثلا إدراج أدونيس الشاعر والناقد المجتهد الذي يعيش في الغرب ضمن الحالة الثقافية السورية الراهنة؟، وهو غزير الإنتاج، وقد اصدر مؤخرا عن دار الساقي كتاب "المحيط الأسود"، والحال كذلك بالنسبة للشاعر والروائي الكردي السوري سليم بركات الذي يعيش في المنفى منذ حوالي ثلاثة عقود واصدر مؤخرا رواية "ثادريميس" التي تبرز من جديد مهارات هذا الكاتب اللغوية والجمالية. بركات يستمد مجده الأدبي من إبداعه الفردي الذي لا يتناسب مع التوجه الرسمي السوري، ولا يبتعد القاص زكريا تامر عن هذا المزاج فهو بدوره يعيش في الغرب ولا يشعر بانتمائه إلى روح الثقافة السورية رغم كونه نال منذ فترة جائزة رسمية سورية رفيعة، وتعد قصة "القنفذ" من إصداراته الأخيرة وفيها يعتمد الكاتب تقنية "فلاش باك" إذ يستعيد ذاكرة الطفولة البعيدة عبر وعي طفل يحاول اكتشاف أبجدية الحياة المتلونة من حوله، في فضاء أحد البيوت الدمشقية القديمة التي تنفتح عبر عيني هذا الطفل على مدينة كبيرة هي دمشق التي شهدت ولادة الكتاب.

ما تكتبه هنرييت عبودي ينتمي بدوره إلى قائمة الإبداع المهجر، وبعدما نالت روايتها "خماسية الأحياء والأموات" صدى طيبا على الصعيدين النقدي والجماهيري، أصدرت مؤخرا عن دار المدى بدمشق، مجموعة قصصية بعنوان "الدمية الروسية" التي تسعى، من خلالها، إلى تقديم نماذج خاصة لنساء ورجال في مفاصل حادة من حياتهم اليومية، وثمة روح أنثى تبحث عن ذاتها المغيبة وسط المحظورات الكثيرة، وهي مكتوبة بلغة مشوقة وجذابة.

ثمة مبدعون سوريون بارزون يعيشون في سوريا لكنهم لم يقدموا ما هو نافر ومثير للجدل. حنا مينة لم يقدم جديدا في هذا العام، أما محمد الماغوط الذي أصدر مجموعته الشعرية "شرق عدن..غرب الله"، فهو أيضا لم يستطع ان يستوقف الناقد والقارئ كما كان يفعل في الستينيات والسبعينيات، هو فقد هذا البريق وراح يعيد إنتاج نصه القديم. هذا لا يعني الانتقاص من مكانته، لكن الماغوط في نصوصه الجديدة، كما القديمة، يعزف على إيقاع الشكوى والحزن، بحيث صار هذا الإيقاع الثيمة الوحيدة الطاغية في منجزه الإبداعي، والمعروف سلفا من قبل القارئ. لا يمل الماغوط من الشكوى، ولا يتوانى عن فضح الجوانب الحرجة في المشهد العربي المعاصر على الصعيد السياسي، والثقافي، والأخلاقي، والحضاري، والاجتماعي...يصغي إلى أصوات المهمشين، والمعذبين، والمنسيين... يواسيهم بكلمات من رذاذ المطر، ويصنع لهم تيجانا قوامها القصيدة، لكنه ورغم هذا الصراخ الطويل، والشكوى المزمنة، والدعوات المتكررة إلى الحرية والفرح، يظل يعيش في بيداء الواقع العربي الأليم، فيطلق صيحة موجعة: "بأقلام من المطر أكتب/وبعيون من المطر أقرأ/وبقطارات من المطر أسافر/ وأوزع هدايا وقبلات من المطر/وأقيم تحت المطر/ولم أرَ الربيع إلا في المتاحف وعلى طوابع البريد...".

"ذاكرة العناصر" عنوان الديوان الجديد للشاعر نزيه أبو عفش وفيه يمضي الشاعر نحو رسم عالم جميل بالكلمات، فهو لا يملك شيئا إزاء هذا الخراب سوى مفردات تطهر الروح، وتقلص مسافات الغياب، وتمنح الطمأنينة للنفس القلقة. ولابد هنا من الإشارة إلى أن كل ما كتبه أبو عفش، شعرا، منذ عقود، لم يستوقف أقلام المثقفين كما فعل مقاله الطويل "يوميات العار" الذي تناول فيه، حادث اغتيال رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري وما تركه من تداعيات على أواصر العلاقات السورية اللبنانية!! الروائي حيدر حيدر الذي يعيش في عزلته الريفية على الساحل السوري أصدر، للتو، عنوانين مهمين بحسب ما قال ابنه مجد حيدر صاحب دار ورد، العمل الأول بعنوان "مرثية الفتى السماوي"، وهو عبارة عن نص نثري مصاغ بلغة عاطفية وجدانية إذ تتناول مشاعر الأب (الروائي) حيدر حيدر الذي فقد ابنه قبل سنتين، أما العمل الآخر فهو مجموعة قصصية بعنوان "إغواء" وهي حكايات معاصرة مكتوبة بشفافية عالية، وثمة خيط رفيع يربط القصص بالحدث السياسي الراهن، أما الروائي السوري ممدوح عزام صاحب "قصر المطر" التي أثارت جدلا واسعا لدى صدورها قبل سنوات، فقد أصدر مؤخرا رواية "أرض الكلام" إذ يواصل فيها مشروعه الروائي المتمثل في توثيق "الذاكرة الحالكة" لطائفة تعيش على تضاريس قاسية، قلقة في الجنوب السوري تبحث عن صوتها الخاص، وتتمسك بتراثها وقيمها المتشكلة عبر الأزمان، ولا يهدف عزام إلى التركيز على خصوصية ما لهذه الطائفة، كالطقوس، والشعائر الدينية الخاصة بها. هو معني، قبل ذلك، بالمصائر، والأقدار، والشخصيات التي تجد لنفسها حيزا في روايته الجديدة، بمعزل عن انتمائها العقيدي.

ثمة أجيال شابة واصلت من جانبها تجاربها في الكتابة، ومحاولاتها في البحث عن أساليب سردية مغايرة، فقد صدر للروائية السورية سمر يزبك عملها الروائي الثاني بعنوان "صلصال" عن دار الكنوز الأدبية، حيث تعود في هذه الرواية إلى عقد السبعينيات لترسم من جديد ملامح تلك الفترة لاسيما في الجانب السياسي، وفي ثنايا الرواية نعثر على روح تسعى إلى الحلم والأمل والتمرد، وسط مساحة الإخفاق الواسعة التي تحجب عن النفس كل أمنية حلوة، ومن المنتظر ان تصدر الرواية في طبعة جديدة عن دار شرقيات في القاهرة، وفق ما قالته الكاتبة.

وفي الوقت الذي مرت فيه رواية خليل صويلح "بريد عاجل" بهدوء دون أن تواكب بتغطية إعلامية مماثلة للتغطية التي واكبت روايته السابقة "وراق الحب"، فإن باكورة العمل الروائي للكاتبة روزا العلي "أبنوس" أثارت نقاشا في الوسط الثقافي السوري لا لشيء سوى ان الرواية تتناول المحظور في الحياة الاجتماعية، وتدخل المنطقة المظلمة. رواية "أبنوس"، التي فازت بجائزة حنا مينة للرواية، قاربت موضوعة الجنس في صورة اعتبرها حماة الثقافة، وحراس القيم "جرأة غير معهودة" بل اعتبرها آخرون "وقاحة"، غير أن فوز الرواية بالجائزة المذكورة، وبالظرف المختوم (سري) ينفي المزاعم الرقابية الجاهزة.

ما ذكر سابقا هو بعض ما نشر لكتاب سوريين، لكن ثمة إصدارات أخرى كثيرة، لا يمكن الإحاطة بها في هذه العجالة، ويمكن الإشارة إلى عناوين قيد الطبع أو في انتظار الخروج من دهاليز الرقابة، إذ ستصدر قريبا للروائي والسيناريست السوري خالد خليفة رواية "مديح الكراهية" وهي عمل فني معاصر يتخذ من مدينة حلب فضاء للحكاية التي تروى على لسان امرأة، وفضّل الكاتب خليفة عدم الكشف عن أي تفاصيل أخرى.

وستصدر للشاعر لقمان ديركي مجموعة قصصية بعنوان "توربيدو" عن دار رياض الريس ببيروت، وهي المجموعة الأولى له بعد أربعة دواوين شعرية، وتضم المجموعة قصصا مفرطة في واقعيتها مع ميل باتجاه إنتاج نص ساخر حسب تعبير ديركي، وتجري أحداث القصص في منطقة الدرباسية الكردية(شمال شرق سوريا) وحلب ودمشق وهي متماهية، بشكل أو بآخر، مع حياة الشاعر وذاكرته.

تجدر الإشارة إلى أن دار المدى في دمشق قد أصدرت، مؤخرا، الطبعة الجديدة للأعمال الشعرية الكاملة للشاعر والمسرحي السوري الراحل ممدوح عدوان (١٩٤١ . ٢٠٠٤) في جزأين.

ثمة اعتقاد لدى الكتاب السوريين بان المقال الصحفي يلعب الدور الأكبر في إبداء الرأي بإيجاز، وله تأثير مباشر ذلك أن الصحافة، لا سيما العربية، تضمن لهذا الرأي الرواج السريع، وبما ان الهم السياسي هو السائد حاليا، ليس فقط لدى الأحزاب والنخب السياسية بل كذلك في الوسط الثقافي، فإن العديد من هؤلاء الكتاب آثروا تأجيل مشاريع الكتابة إلى حين، وراحوا ينشرون في الصحف ما يعتبرونه واجب المثقف إزاء تغيير الظروف في البلاد. قد تثير مقالة من ألف كلمة نقاشا واسعا، ولأشهر، لا تستطيع أن تثيره، على سبيل المثال، رواية كبيرة الحجم مثل رواية "مرسال الغرام" للروائي السوري فواز حداد، لكن ثمة من يجادل بان الإبداع شيء والمهاترات السياسية شيء آخر. بعيدا عن هذا الجدل فإن الواقع يشير إلى غياب للحراك الثقافي الأمر الذي يجعل من الحراك السياسي، أيضا، فقيرا، وبائسا.

"أبو لودور" الدمشقي ..المعمار الشامي الذي أشاد مجد روما

د.علي ثويني

ثمة مغالطة تاريخية قد سادت وانطلت على الكثيرين ،ولم تتضح معالمها إلا بمعونة علم الحفريات (الاركيولوجيا) الذي استند الى منهج جوهره المقارنة وبنيته التقادم والريادة، لتعلن الفيصل بين المتساجلين والمدعين، فقد دحضت أساطير أكتنفها الغموض ، وطروحات وحيدة الرؤيا تكرس تبعية العمارة الى مصدرين اثنين :أما الإغريق أو الرومان،وكأن الأرض قد نفقت من دونهم ، وانتفى بها العقل والابداع، والأنكى هو حمى العروق صانعة الحضارة، فكان الآريون جهابذتها، أما سواهم ،فهم محض ناقلين مقلدين، إذا توفر هامش لذكرهم. وجاء الإهتمام بمصر وفينيقيا إستثناء، كونها "متوسطية" الموقع بما يتعلق بروما وأثينا المتوسطتين ،وليس كونهما الأقدم والأثرى والأرقى.

وتناقل مستغربونا الخطاب الإستشراقي الغامز المنحاز، قاصدين أو صاغرين، فأمسى ما ذهب إليه أدنى مستشرق وأكثرهم هزالا، شهادة لاترقى عليها شهادة ملموسة أو مكتشفة حفريا، و دلت عليها سياقات المكوث في البيئة المعمارية و الأعراف البنائية المحلية. ومازال ثم سكوت مفتعل على الكثير من المعطيات التي تؤكد بأن الحضارتين العراقية وبعدها الشامية كانتا الرائدتين في جل المنتج الفكري والحضاري العالمي، حينما ألصقتا بمنتج روما وأثينا جزافا،وتبين بعد سطوع المعلومة الحفرية بأنهما مصدران فرعيان ،كانا قد ولدا بعد دهور طوال من بزوغهما وشيخوختهما في الشرق القديم .

وإحدى تلك المغالطات والإنحياز، هي سيرة معمار آرامي (يعتبره البعض عربيا) من دمشق ،يعرفه أهل الغرب بأنه عبقري روماني ، وقد يستدل من خلال سيرته ومنهجه المعماري انه شرقي الروح والمنهج. لقد تسنى لهذا المعمار ان يبني للإمبراطورية الرومانية ما تفخر به على طول الحقب الزمنية و درج اسمه على الألسن بـ (أبو- لودور الدمشقي(داماسكينو) (Apolodor of Damascus ،ويرجح ان أسمه (ابو الورد) أو (أبو الذر)الذي ولد على ضفاف بردى الرقراق عام ٦٠م ،و كان قد عاصر الذروة الحضارية التي وصلتها الحياة الرومانية، والذي كان هو أحد رموزها وحاملين وزرها ، إبان عصر امبراطورها تراجان (طراخان) الذي حكم بين أعوام (١٠٧-١١٧م) ، وذاع صيته غازيا وعسكريا محنكا ،أراد ان يفتح الدنيا فاستعان في مشاريعه العسكرية بعبقرية كان قد سمع عنها في دمشق، وتسنى له أن يحقق ما أراد من خلال البنايات ذات الغرض العسكري التي تكرس في محياها الخيلاء والجبروت لسلطة القيصر الدنيوية. وهذا المنحى البنائي كان قد جبل عليه الرومان في تسخيرهم العمارة لأغراض سلطوية دنيوية بحتة .ويجدر ذكر أن تلك النزعة قد أسترسلت من ضمن نزوات الطغاة في التاريخ ،حينما أقحموا العمارة في السياسة ،وتجسد صريحا إبان السلطات (الشمولية)،وآخرها سلطة البعث في العراق.

لقد تربع الدمشقي على قمة المسؤولية التي أثبت من خلالها موهبته كمعمار ومهندس إنشاءات وكفنان نحات على درجة لا تدانى من الموهبة و الحذاقة ، جسدها في عدد كبير من المباني والنصب في أماكن متفرقة من الإمبراطورية، وقد توج أعماله هذه بعمارة القنطرة الشهيرة التي شيدها على نهر الدانوب عند منطقة (دروبيتا) بين أعوام(١٠٢-١٠٥م)،بغرض عبور جيش روما لحرب شعب (الداق) البدائي القابع شمال الدانوب ، في الأرض التي يطلق عليها اليوم (روماني).وبالرغم من أن تلك القنطرة درست اليوم،فأن وصفها جاء على لسان إخباريي تلك الحقبة وترك صورة لها في إحدى النصب الملحمية التي شيدها هو بنفسه في إحد أقواس النصر، والتي نقل بها ملامح من الملاحم النصبية العراقية- الشامية لاسيما من المدرسة الآشورية، لتتقمصه روما ،وتنسب ريادتها لها جزافا.

وتكمن وراء اختيال الرومان بذلك الإنجاز هي الصعوبة التي تكتنف طبيعة المنطقة الصخرية المراد بناء الجسر فيها التي يطلق عليها اليوم (أبواب الحديد poarte de fer)، إضافة الى سرعة جريان مياه النهر الهادر ،واتساع المسافة المعقودة بين الضفتين والبالغة ١١٣٥م .لقد أستقر الجسر على ٢٠ دعامة مبنية من الحجر المهندم بهيئة زورقية باتجاه حركة الماء ومحشوة بالطوب المفخور ثم بالخرسانة التي اعتاد الرومان استعمالها والمتكونة من خليط من الرمل والحصباء والكلس والصلصال التي تقاوم عمليات الضغط بكفاءة دون ان يماثلها في عمليات الشد. وكان البحر الفاصل بين الدعائم ٣٣م ،جسرت فيما بينها بهياكل من جذوع خشب السرو الضخمة،بعرض ١٤م ،وارتفاع ١٥,٦٠م ،مبنية بهيئة عقود قنطرية متراكبة ومتشابكة ،بحيث تؤدي حبكتها مهام مقاومة عمليات الشد الناتجة عن تحميل الجسر.

لقد كان هذا الصرح أشهر من أي إبداع قام به الدمشقي بالرغم من الكم الهائل من المعالم التي كان قد شيدها لتزيين محيا روما الخيلائية في زمان مليكها (تراجان)،الذي أراد بمعين هذه العبقرية أن يتحدى من سبقه في الملك والعظمة مثل يوليوس وأغسطس . ونجد هذا الهاجس تجسد في إسناده لمشروع تهيئة" ميدان الخاصة" الشاسع الذي يحتل موقع القلب من روما بشكله المستطيل والذي نجد بقاياه ماثلة حتى اليوم في أطلال ماتبقى.

لقد ارتأى الدمشقي أن يخططه بحيث ينفذ دفعة واحدة ويجسد به حذلقة بصرية وجمالية لمجمع مهرجاني أريد من ورائه غرض البهرج والخيلاء الذي كان رائجا في عمارة تلك الأزمنة ، بحيث يؤطره بوشاح من المماشي الرواقية للعامة، ويتخذ موقع القلب والوسط منه نصب لعمود ضخم منحوت يحمل اسم الإمبراطور (تراجان)، الذي يعتبر تنفيذه حالة رائدة كذلك لهذا النوع من المسلات النصبية في الساحات العمومية والتي لا تزال تمارس حتى يومنا هذا .وتنتهي في طرفيها من الجانبين بمدرجين نصف دائريين وفي محور الولوج الى هذا الميدان بنى قوسا للنصر،يجسد به انتصارات الإمبراطور ، والذي لم يبق من آثاره شيء ، فقد اتى عليه البرابرة الوندال القادمون من الشمال الذين أطاحوا بعلياء روما، بعد مجد وابهة أستمرت ثلاثة قرون.ولكن من حسن الصدف ان الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأكبر،حين احتلاله روما، انتزع جزءا من التماثيل المنفصلة وبعض العناصر الناتئة المكونة لهذا القوس والحقها بقوس نصر شيده قرب ملعب روما تمجيدا لانتصاره ، بحيث حافظ بتلك "الإستعارة" على التماثيل بعد خراب الأصل. وقد تضمن المجمع الحضري هذا أكبر بازليكا(محكمة) في روما المسماة (أولبيا) أسقطها في محور هذا الميدان الشمالي الجنوبي و بطول ٦٠م وتقبع على خمسة بحور من الهيكل الحجري أوسعها في الوسط، وسقفها بهيكل خشبي مغطى بقرميد من البرونز المتلألئ كما أخبرنا بذلك (باوسانياس) ، الذي قارنها بالحذاقة نفسها التي شيد بها قناطر الدانوب.

وفي موضع ما من هذا الميدان أقام الدمشقي مكتبتين متناظرتين لتهب الموازنة البصرية للمكان، وتغلق الفضاء المفتوح في نهاياته، وذلك بإرساء معبد (العبقرية التراجانية) في الطرف الشمالي الغربي للميدان ، والذي وهبه قيمة فنية استثنائية من خلال النصب الضخم للإمبراطور ممتطيا حصانه والذي يقع على المحور نفسه مقابل المعبد .ومن الملاحظ أن المحورية والتناظر الكتلي سنة تخطيطية كانت قد وردت في مباني الشرق منذ أوروك وأور ،ويراد منها تكريس توازن بصري، وإضفاء حالة من الأهمية والأبهة والجمالية للمكان.

والظاهر أن موهبة الدمشقي تكمن في قدرته على توظيف الخشب الغابي في تغطية البحور الكبيرة، المبنية مساندها الحاملة من الحيطان أو الأكتاف أو الأعمدة، والمبنية من غلاف بنائي بالآجر أو الحجر مثل ما ندعوه اليوم (القالب الضائع)، ثم يحشوها بخرسانة وخبث يعمل الصلصال البركاني على تلاصق مكوناته.أما في البحور المتوسطة والصغيرة، فقد كان يلجأ لعمل القباب والقبوات(الطاق) بين العناصر الحاملة،ولاسيما النوع (البرميلي) الذي أستعمل في تنفيذها القوالب الخشبية، وهذه بحد ذاتها سنة بنائية وردت من العراق القديم،وكان أصلها من الطوب والآجر،واقدمها أكتشفه الحفريون في (تبه قوره) قرب كركوك العراقية،و تعود الى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد. وهكذا يمكن إعتبار الدمشقي مع رعيل سبقه أو تلاه ، قد نقلوا تلك التقنية وكذلك تقنية القباب وأنصافها وأرباعها من الشرق القديم عموما،وبثوه في سامق صروح العمارة الرومانية.

لقد أتحف الدمشقي روما بأجمل العمائر ذات الوظيفة العمومية التي اختالت بها في تاريخ زهوها، مثلما هو الحال في توسعة (السيركس الأعظم) وكذلك (الجمنازيوم) و(الأوديونوم) و(حمامات تراخان) بالإضافة الى عمائر تذكارية مثل قوسين للنصر (أنقورا و بنيفينتو) اللتين تعتبران طفرة نوعية في تصميم أقواس النصر الرومانية بما تمتعت به من فخامة وصرحية في الحجم لاتنقصها الرشاقة وجمال النسب والموازنة ،ناهيك عن الموضع و التركيب المحوري الذي اختاره لهما إضافة الى الغنى في الزخرف والمعالجات الفنية من نحوت بارزة وكتابات خطية متناسقة الأجزاء ، ليعلن من خلال كل ذلك منهجه المبني ورفضا للمبالغات والمعالجات المعقدة التي اعتادت عليها روما لاسيما في تصميمات أكبر معماريها (رابيريوس) من السابقين للدمشقي الذي رام أن يؤكد في ذلك انتماءه الى مدرسة الفن العراقي والشامي التي ولد في كنفها والتي خطت لنفسها المنحى القياسي والتنظيم الترتيبي في التعامل مع النسب الجمالية بحذر مما يطلق عليه مؤرخو الفن الغربيون جزافا "الترتيب الإغريقي" ،وهو في حقيقته " ترتيب شامي".

لقد خلف الإمبراطور (أدريان)الابن المتبنى من تراجان في الملك وقد أهتم بالعمارة وأراد إعادة بناء وتغطية البانثيون في روما عام ١١٧م حيث لجا الى المعماريين السوريين لبناء القبة فيها .ويقول في ذلك الفرنسي جورج مارسيه معلقا على الفترة اللاحقة (ان الفن البيزنطي استمد من آسيا أكثر بكثير مما استمده من الإغريق وانه ليس من قبيل الصدف أن يتولى عمارة آيا صوفيا في القسطنطينية معماريان شرقيان هما (ايسودورو وانتيموس) ويعني بذلك تأثيرهما الجذري على شكل العمارة البيزنطية).

لقد كان الدمشقي حر الفكر معتدا بموهبته، ولم يتزلف أو يتبع أهواء الملوك في حرفته ،وعرف عنه لاذعا وسليط اللسان، ولم يهادن أو يحاب، حتى لو كان الإمبراطور أدريان نفسه ، الذي كان قد وسم في نفسه الفقه في العمارة "مثل كل الطغاة"،ووصل به الحد الى أن يصمم بنايتين(معبد فينيروس والرومي).لكن الدمشقي سارع الى نقدهما بموضوعية وحجة فنية ،مما أدى الى تراكم الغل في صدر الإمبراطور الحاسد لمنزلة الدمشقي وسمعته الأدبية في الوسط الإجتماعي والفني، حتى وصل الأمر الى قتله عام ١٢٥م وهو في الخامسة والستين من العمر.

لقد ترك الدمشقي بالإضافة الى أجمل ما يفخر به الغرب في روما وحضارتها ، كتابا كان قد خطه عن العمارة الدفاعية وأهداه الى ادريان وعنوانه (أطروحة فيما يخص الة الحروب) رسم فيها خطه وخبرته ، وقد ترك لنا صورته في ثنايا أعمدة وأقواس النصر التي أقامها في روما ،واليوم لدينا نسختان لتمثالين وسطيين للدمشقي إحدهما في متحف الكابيتول في روما، والآخر في القاعة الرومانية في متحف مدينة ميونيخ الألمانية. لقد طوى الدمشقي بموته صفحة جميلة من انتقال الحضارة والعمارة من الشرق الى الغرب .